مأساة البوسنة في ديوان

« جسر على نهر درينا »

ملحمة الإسلام في البوسنة

للدكتور حسن الأمراني

ليس صعباً على أي مراقب فطن ، فضلاً عن المثقف الملتزم أن يلمس تبعية الإعلام العربي، ناهيك عن الدبلوماسية العربية للإعلام الغربي فيما يخص التفسيرات الخاصة بالظواهر الموجودة في المنطقة العربية والإسلامية ، سواء كانت ظواهر اجتماعية أم سياسية . فما إن يستخدم الإعلام الغربي مصطلحاً ما في توصيف ظاهرة تعيشها المنطقة حتى تصبح الترجمة الحرفية لذلك المصطلح مقدسة عند الإعلام العربي .

ليس هذا تنظيراً في الهواء ، بل هو مقدمة ضرورية للحديث عن مصطلح «التطهير العرقي» الذي شاع استخدامه في الإعلام العربي تبعاً للإعلام الغربي بالطبع لوصف ما يقوم الصرب من حرب إبادة ضد مسلمي البوسنة والهرسك منذ ما يقارب العام . (التاريخ عند كتابة المقال شباط ١٩٩٣).

والحقيقة أن هذا المصطلح ليس عفوياً ، وإنما يحمل في طياته محاولة لتزييف حقيقة ما يجري في البوسنة ، بتصويره على أنه عمليات قتل يمارسها عرق تجاه عرق آخر ، في الوقت الذي تختلف الصورة فيه اختلافاً كلياً ، لأن ما يجري في البوسنة هو عملية إبادة ثقافية لا تختلف في

* نشرت هذه الدراسة في كتاب "اصوات" العدد الثاني

شيءعن محاكم التفتيش في الأندلس .

إن ما يفعله الصرب نيابة عن أوروبا هو عبارة عن عملية إبادة ثقافية لمحو هوية ثقافية ينظر إليها على أنها مشروع حضاري وثقافي منافس يملك القدرة على صناعة المستقبل . فعمليات استهداف المساجد والعلماء وكل المعالم الثقافية والدينية في البوسنة والهرسك ليست مصادفة على الإطلاق.

إن عمليات التزييف للذي يجري في البوسنة لم تتوقف عند ما يفرزه الإعلام ، بل لقد وصل إلى الإبداع الذي يكتبه بعض الغربيين . ولعل القصة التي كتبها دوغلاس هيرد وزير الخارجية البريطاني إثر زيارة له لسراييفو وكانت بعنوان (آخر أيام الصيف) واحدة من محاولات صياغة إبداع يصور المأساة على غير حقيقتها . فالعاقل الوحيد في قصة هيرد هو الصربي (بوريساف) فيما وقع جميع شخوص القصة من صرب وكروات في دوامة الجنون ، هذا فضلاً عن تجاهل البعد الثقافي في حرب الإبادة الصربية .

من هنا تبدو مهمة المبدعين الإسلاميين من كل الجنسيات، مهمة عظيمة ، ليفرزوا إبداعاً يليق بحجم المأساة، ويدخل إلى أعماقها لكي لا تضيع معالم الصورة الحقيقية وسط الضباب الكثيف الذي ينشره من يملكون

القدرة على صناعة الحدث ، فضلاً عن الترويج له، ولتظل نصوص الابداع الملتزم حية تعري الجريمة وتفضح المجرمين المباشرين وغير المباشرين .

من هذا المنطلق يأتي احتفالنا بالديوان الجديد للدكتور حسن الأمراني "جسر على نهر درينا. . . ملحمة الإسلام في البوسنة" .

الأمراني شاعر مغربي إسلامي ملتزم ، بل لعله من الشعراء الإسلاميين المتميزين سواء لشعره ، أم للتجربة الرائدة التي قام عليها والمتمثلة في المغامرة بإصدار مجلة ثقافية هي "المشكاة" ، والتي تعتبر المطبوعة الإبداعية الوحيدة على الصعيد الإسلامي مع الأسف.

"جسر على نهر درينا" هو محاولة رائدة ، ولعلها الأولى ، لترجمة مأساة البوسنة إبداعياً ، لأن ما عداها كان قصائد متفرقة تلهث خلف الحدث ، وبكائيات رأينا منها الكثير في وصف جراح إسلامية متفرقة هنا وهناك .

ليس هذا الكلام نقداً للقصائد التي عالجت موضوع البوسنة ، فمنها بالتأكيد الفريد والمتميز ، ولكن ريادة ديوان الأمراني أنه بكليته مخصص للمأساة البوسنية ، فضلاً عن

أنه يضع يده على جميع جوانب المأساة وتداعياتها بشمولية وعمق .

عنوان الديوان أو "اللوحات الشعرية" كما يحب الشاعر أن يسميها مأخوذ من اسم رواية الكاتب البوسني الكاثوليكي (جسر على نهر درينا)، وهي الرواية التي نال عليها الكاتب جائزة نوبل للآداب عام ١٩٦٢ .

يوضح الأمراني سبب استعارته لعنوان الرواية بالقول أنها "تختصر تاريخ البوسنة والهرسك ، منذ الفتح العثماني حتى الاستعمار النمساوي ، برؤية الكاتب المتميزة" ، ويضيف، بأن "الجسر الذي كان قائماً على نهر درينا قد بني عام ٩٨٩هـ (١٥٧١م) بأمر الوزير العثماني محمد باشا سوكلوفيتش الذي ولد في قرية صغيرة من قرى البوسنة ، وهي الواقعة عند ملتقى النهرين (درينا ورزاف) ، وقد أراده الوزير رابطاً بين الإقليمين العثمانيين : البوسنة والصرب" .

بطل الرواية الفلاح (داسادوف) تكون نهايته على خازوق وعلى جسر درينا . واليوم ، يقول الشاعر "يعود نهر درينا ليشهد مآسي لم يعرف لها العالم نظيراً ، حيث يعدم الصرب رجالاً ونساءً ، وأطفالاً مسلمين، ويلقون بجثثهم إلى النهر ».

الديوان عبارة عن ثلاث عشرة لوحة شعرية ، وهي في مجملها خطوط متفرقة تجتمع معاً لتشكل اللوحة الحقيقية التي تجسد المأساة بكل ألوانها وتعرجاتها .

بعد ثلاثة عشر مشهداً يتركنا الشاعر فاغري الأفواه بعد أن ألقى في وجهنا طلقاته التي يملكها كشاعر في مواجهة الجريمة ، ثم ينسحب ليدع الكرة في مرمانا ،نحن الذين نمارس حياتنا وكأن شيئاً لا يحدث على الإطلاق، وكأن صرخات عشرين ألف مسلمة اغتصبهن الصرب لم تلامس أسماعنا .

لم يتركنا الشاعر مطمئنين إلى أن "معتصماً" ما سيهب لانقاذ هؤلاء النسوة وأولئك الأطفال ، بل يضعنا جميعاً في مواجهة المأساة ، فإما أن نكون أو لا نكون .

● اللوحة الأولى :ورقة مهملة من سيرة حيران بن الأضعف

حيران بن الأضعف هنا هو شاب بوسني يتذكر كيف كان مع أصدقائه الصرب يغنون "الشعر والثورة في ساحة (هوشي منه) " ، "وكيف كان على حائط برلين يخط الأحرف الأولى" . إنها صورة ذلك المسلم ، الذي استسلم

للفكر الأممي معتقداً بأنه يصهر الجميع ، وها هو يقف الآن شاهداً على المأساة تأكله الحيرة وهو يتساءل كيف انقلب عليه الرفاق، وتأخذه الذكرى بعيداً إلى صورة ذلك الشيخ الذي كان يتحدث عن المأساة بما يشبه النبوءة :

«عندما كنا نرى الثورة منشوراً خرافياً

يرجّ الشعب عبر البندقية

يومها وشوشني الشيخ الفتى :

إني سأفضي لك بالسر، فلا تجهر به من قبل أن تؤنس نار الأبدية

فجميل الصبر مفتاح القضية .

يا بني :

سوف يأتي -واحفظ القول- على الناس زمان

تصبح اللحية فيه بندقية

وحجاب البنت يغدو قنبلة

وظننت الشيخ يهذي

وبأعماقي ضحكت

لم أكن أفهم شيئاً ، وهو يتلو الزلزلة .

● اللوحة الثانية : البيان

اللوحة الثانية يرسمها الشاعر قرب الجسر الذي تعلق عليه "إعلانات الغزاة" ، ويعلق الضحايا ويصلب الثوار الخ . .

في هذه اللوحة يصوّر الشاعر حواراً يدور بين علي خجا أحد أبطال رواية جسر على نهر درينا ، واسماعيلوفيتش، شخصية أخرى .

ورغم أن الحوار يبدو للوهلة الأولى حديثاً تاريخياً عن الاحتلال النمساوي ، إلا أنه صورة حية للاحتلال الجديد . وهنا يقف علي خجا في مربع اليائس من احتمالات السلام فيما يعارضه اسماعيلوفيتش ، ويكون الحوار :

علي خجا : قد نصحت القوم لكن لا تحبون النصيحة

إننا للمرة الألف عقدنا الصلح لكن . . .

تحت خيل الكفر أضحى كل عقد

مثل أحلام كسيحة

اسماعيلوفيتش : لا تدع لليأس سلطاناً عليك

فغداً تشرق أنوار الحقيقة . . وغداً

(يسمع صوت انفجار قوي . . ويظهر لمعان القصف)

قصف ، دمار ، ضحايا . . .

الكون أصبح أبله

علي خجا : (في ثقة) ترك الجهاد مذلّة .

في نهاية المشهد يظهر صبي يقرأ وثيقة الاحتلال المعلقة على الجسر والتي كتبت باسم فرنسوا الأول، أمبراطور النمسا.

إنه مشهد نهاية الحكاية "معاهدة الصلح بين القتيل وقاتله" والسيناريو المتكرر للمعاهدات ، والمواثيق التي يدوسها الصرب ، فهل تكون النهاية الجديدة هي ذاتها القديمة؟!

● الثالثة: الجرح الهادر

هذه اللوحة هي صوت الشاعر ، وهو يؤرخ للقرية حينما حكمها المسلمون ، عن الحلم "الذي غالته أعاصير السنين" ، وعن "الطيور التي هاجرت أوكارها" ، وعن القرية التي كانت "موئلاً للحساسين ومأوى الياسمين" ،

وكيف كان "الأذان الغض في أرجائها ، ينشر البشر ويهدي السالكين .. وحياة الناس نبض خافت ، بين انجيل وقرآن مبين " .

هذه القرية التي يبدع الشاعر في وصفها وهي البوسنة أو سراييفو ،والتي عاشت "قروناً خمسة لألاءة" تحت رحمة الإسلام .. ماذا لها اليوم :

ذبحوها .. هدّموا أعشاشها .. صادروا ألحانها بين اللحون

هتكوا ستر الصبايا ، عذبوا .. كل شيخ .. قطعوا كل وتين

في نهاية هذه اللوحة يعترف الشاعر بأن المسألة واحدة لا تتجزأ وهي "أن نكون الآن أو أن لا نكون" !.

● الرابعة : الصلب

لوحة "الصلب" هذه تقترب في رؤيتها من لوحة "حيران بن الأضعف" ، فالرجل المصلوب هنا يتساءل عن سر جريمته ويستعيد تاريخه الذي لا يؤهله لذلك ، فوالده ناضل طويلاً تحت الراية الحمراء ، ووقف مدافعاً عن بلجراد وعن زاغرب (عاصمتي الصرب وكرواتيا) ، كما فعل أيضاً

عن سراييفو . . إنه لم يفرّق بين هذه وتلك . وهنا ينفجر السؤال :

«فلماذا اليوم صرنا غرباء ؟

ولماذا اليوم صرنا كالوباء ؟».

● الخامسة : الواقعة

في هذه اللوحة يقارب الشاعر بين مشهد سقوط غرناطة، وبكاء أبي عبد الله الصغير ورد أمه الواضح عليه ، ومشهد بكاء شاب مسلم بين يدي أمه ، ورفضها قبول اعتذاره وقولها له بشموخ المسلمة : «لم أجد عذراً سوى أن تطلبوا درب الشهيد!» .

● السادسة : الاغتصاب

لا يمكن أن تكتمل الصورة بغير هذا المشهد الذي اعترف العالم بفظاعته في مأساة البوسنة .

عشرون ألف أمرأة مسلمة يغتصبن على أيدي المجرمين الصرب . إنه المشهد الأكثر بشاعة واستفزازاً للمشاعر . «إننا نعرفهم ، لقد كنا زملاء في الجامعة والعمل و . . . و . . .» . . . هكذا تحدثت النسوة المسلمات ، وهنا

تزداد بشاعة الصورة ووضوحها في الآن نفسه .

ولأن المشهد هو أكثر المشاهد تجسيداً للكارثة يبدو الشاعر، وبعد رسمه لمشهد الاغتصاب ، وكأنه يعتذر عن عجزه عن فعل شيء ، سوى أنه قد "صيّر سيفه قلماً ، و"جعل حبره من دماء القلب" . . . .

"لعل رمح الصرخة الخرساء

يشق قلب عابد المحراب

بالغضب المغموس في قرارة الاحقاب

ويبعث الدماء

كاسحة من قلب هذا الشعب " .

● السابعة : الذكرى

في هذه اللوحة تزدحم الصور الشعرية في محاولة لرسم صورة للقرية في خيال مسلم بوسنوي ، ومعه حوار مع النهر الذي يزدحم بأكوام الجثث.

وهذه اللوحة هي عبارة عن فاصل موسيقي حزين يتخلله صورة القرية حسبما يتخيلها عاشق ولهان . . ويبدو هذا الفاصل راحة للقارئ بعد اجهاد المشاهد السابقة

المزدحمةبالفجيعة .

● الثامنة : الرؤيا

بعد الفاصل الموسيقي الحزين الذي ارتسم في اللوحة السابقة ومشاهد القرية الجميلة تمر ، لا بد أن يكون المشهد الجديد هو صورة الفجر الذي لا بد أن يجيء . . ربما احتاج إلى قليل أو كثير من الوقت . لكن للفجر بشائره ، ولن تكون البشائر إلا :

"على ساعد شيخ يتعبد

مثل بلقيس التي أبصرت الحق

وقد لامست الصرح الممدد"

وفي نهاية اللوحة تبدأ "قافلة الإيمان التي لا تخشى الذئاب رحلتها " .

● التاسعة : الخرافة

هذه اللوحة ، تضع اليد على سرّ تساؤل مهم طرحته اللوحات السابقة مراراً ، ورغم قصر هذه اللوحة (عشرة فقرات فقط) ، إلا أنها تحكي كيف تجمع كل هذا الحقد الصربي على المسلمين .

إن للأمر علاقة بجذور التربية ، فكما يربي الصهاينة أطفالهم على الحقد على كل ماهو عربي ومسلم ، وأدب الأطفال الصهيوني حافل بذلك، فإن الصرب يفعلون الشيء نفسه عبر تربية أبنائهم على الخوف من "الغول" . وهو حسب الخرافة التي يزرعونها في نفوس أطفالهم :

«- خليع عربي ضيق الجبهة أسود

يطلع الليلة من قلب الجدار

يزرع الرعب بأعماق الصغار

- مسلم أنت ، إذن أنت من الترك . .

أتركي ؟ إذن أنت غريب

بل عدو ظامئ للدم والقتل المريب ».

● العاشرة : الحقيقة

هذه اللوحة هي الحقيقة في مواجهة الخرافة . . الخرافة تقول للبوسني المسلم بأنه تركي غريب ، أما المسلم فيرد متسائلاً وباستغراب :

أغريب أنا في أرضي ؟

هيهات . . أبي روّى ثراها

كل شبر فوقها يشهد أني من بناها

ورعاها . . وسقاها . .

وأبي الذي من أجلها أعطى دمه

ضحى لتبقى مسلمة .

● الحادية عشرة : بديع يتلو أشعاره

بديع في رواية "جسر على نهر درينا" ، هو الشاعر العثماني الذي نقشت أبيات من شعره على الجسر . الأبيات تتحدث عن الرجل العظيم محمد باشا الذي بنى الجسر ، وتمنى أن يجعل مبناه أي (الجسر) قوياً متيناً .

الشاعر هنا يقدم حواريته الذاتية على لسان بديع . . ولعل الكلمات هنا أشبه بموال حزين يغنيه الشاعر بينه وبين نفسه . ولا يكتفي فيه برثاء "الأزهار التي شاخت ، والبدر الذي انتحر" ، ولكنه يتجاوز ذلك ليفجرالسؤال بينه وبين نفسه رغم أنه يبدو وكأنه يحاور النهر . .

«ما الذي يبقى من الشعر إذا صار فماً دون قضية

ما الذي يبقى إذا صار كورد المزهرية

في بلاط المترفين ؟

أيها الحرف الأمين

لتكن سيفاً بصدر الظالمين».

● الثانية عشرة : والإسلاماه

في هذه اللوحة خطان متصلان يصبان في عموم المشهد البوسني . الأول مشهد الأم التي ذبحوا طفلها أمام ناظريها وفيه وصف لمشهد الذبح والتمثيل بالطفل ، والخط الثاني يتمثل في الحوارية التي تقيمها الأم مع الطفل المذبوح ، والتي يتصاعد فيها نشيد الايمان شيئاً فشيئاً حتى يغدو صرخة في وجه الظالمين ، ووقفة على بوابة الإسلام العظيم ثم يتراجع إلى الذات المسلمة ليقدم مرثية للواقع الإسلامي الذي يقف مشلولاً عاجزاً عن تقديم العون لمسلمي البوسنة.

ربما كانت هذه اللوحة من أجمل اللوحات ، وفيها يتوهج الشعر ، وهو يجري مقارنة ، غير مباشرة بين من تطل من رؤوسهم بشائر الموت والخراب . وبين من تضيء في جباههم بشائر الخير والسلام للبشرية . بين من يدّعون الانتساب لنبي السلام (المسيح) عليه السلام ، وبين من يؤمنون به حقاً وينفذون وصاياه .

في آخر اللوحة لا تجد الأم الثكلى بعد أن تمر على مشهد

المسلمين النائمين سوى أن تتوجه بكل الحزن والفجيعة إلى الأندلس . . .

«يا أرض أندلس سلاماً

ما عدت وحدك جمرة الذكرى ، سلاماً

هذي سراييفو تبادلك التحية والختاما . .

يا أرض أندلسٍ سلاما ».

● الثالثة عشرة : أطفال سراييفو يتحدون الحصار

كما قلنا سابقاً ، فإن مشهد السقوط الأندلسي، لا يتكرر في الديوان لأنه مشهد احتلال تاريخي فحسب ، بل لذلك التشابه المتعدد الأوجه بين المشهدين . فكلاهما في أوروبا ، وفي الحالتين ثمة عملية إبادة ثقافية ، فضلاً عن الإبادة الجسدية، وفي الحالتين ثمة دول طوائف تنشد التبعية والحماية من الغريب . غيرأن ما يميز المشهد البوسنوي هو هذا الصمود الرائع الذي يبديه المسلمون هناك . . رغم قلة الامكانات والحصار التسليحي المفروض عليهم ، والذي أدّعى الغرب بأنه كان لصالحهم .

في هذه اللوحة (الخاتمة) تتجسد إرادة الصمود، وتزداد

اللوحة روعة حين يأتي إعلان الصمود من الأطفال ، ولذلك دلالات هامة، يريدها الشاعر. فالأطفال هم عنوان المستقبل ، فإذا سقطت البوسنة اليوم ، ووقف المجرم يتلو معاهدة الصلح، وينقشها على الجسر المدمّر ، فإن الأطفال سيكون لهم رأي آخر في المسألة . . وإذا تواصل الصمود فإن الأطفال سيكونون رايته المرفوعة ، كما هم في ساحات فلسطين.

تبدأ هذه اللوحة بما يشبه الأنشودة يتلوها أطفال سراييفو، ويعلنون من خلالها بأن كل ما أصابهم ويصيبهم لم يكن إلا لأنهم مسلمون ، وفي هذا تأكيد على مسألة الهوية ، وأثرها في الصراع الدائر .

ويواصل الأطفال نشيدهم الإنساني الخالد . . .

«نحن أطفال سراييفو الجميلة

نعشق العصفور والوردة تزهو في الخميلة

نعشق الأرجوحة الخضراء في الحقل ، ونعدو

نحو أفق لا يحدُّ

نعشق الشمس ولون البحر ، نلهو بالمحار

مثل آلاف الصغار

ونحبّ النهر يشدو . . والفراشة

تملأ الكون حبوراً وبشاشة

فلماذا يا إلهي ضرب الصرب الحصار ؟

ولماذا سرقوا منا النهار ؟

ولماذا بالدمار

لطخوا وجه السماء ؟

ويتواصل نشيد الأطفال الخالد ، يصف بشاعة الجريمة ودناءة القاتل ، الذي "يطلق الرصاص على الورد ، ويصادر الآباء والبراءة والحكايات الجميلة " . ومع ذلك يختم الأطفال نشيدهم بذلك التصميم على الصمود، وذلك الإيمان بضرورة " اخضرار المنابر من جديد، والمحاريب ترى الذكر نديّاً من جديد ، وستزهو الأرض من دفء الآذان " .

"سوف نعلي راية الإسلام في الأرض وإن طال الحصار

وسنبني للحضارة

ها هنا ألف منارة . .

ومنارة . .

يا سراييفو المجيدة

يا سراييفو الشهيدة

أذن الله بأن ترفع رايات الجهاد

نحن أطفالك ، حراس العقيدة

لن يطول الانتظار !

لن يطول الانتظار!»

لا أبالغ إذا قلت بأن هذا الديوان هو من أجمل ما أبدع قلم الدكتور حسن الأمراني ، ففضلاً عن ريادته في الكتابة الإبداعية عن قضية البوسنة وفي ديوان كامل ، فإن البعد الآخر هو هذه الروعة التي خرج بها الديوان على قلة عدد صفحاته (٦٠ صفحة من القطع الصغير) ، فرغم أن القضية تستثير أعصاب المسلم بما تحمله من بشاعة في الإجرام من قبل الصرب ، إلا أن ذلك لم يسقط الشاعر في الخطابة الهجائية المعهودة لدى كثير من الشعراء الإسلاميين . فعلى امتداد الصحفات والمشاهد ، ظل الأمراني يكتب شعراً ، ويرسم شعراً .

هذا جانب ، الجانب الآخر، هو ذلك البعد الإنساني والجمالي في المعالجة الشعرية للمشاهد ، وهذا اللون من المعالجة يدخل القصيدة في دائرة الخلود ، لأنه يجعل بالامكان قراءتها ، وبنفس الألق والمتعة، بعد ألف عام ، وربما النظر إليها كقصيدة تصّور أية مأساة مشابهة في أي زمان ومكان .

فالإسلام دين الإنسانية ، والمسلم يعشق العصافير والشجر ، ولا يطلق الرصاص على الورد كما يفعل المجرمون المدمنون على الجريمة.

عندما رأيت الديوان توقعت أن أجد فيه نبرة خطابية عالية تنأى به قليلاً عن دائرة الابداع وجمالياته المطلوبة ، ولكني سررت كثيراً عندما خاب ظني ووجدتني أمام سيل من الصور الشعرية والتشبيهات الرائعة ، في الوقت نفسه الذي وجدتني أمام وضوح رائع .

والوضوح هنا هو شيء غير المباشرة والخطابية، فالوضوح هو من سمات الشاعر الواثق من ابداعه ، على عكس الغموض المسف الذي تشهده ساحتنا الشعرية هذه الأيام .

وختاماً فإنني أجد لزاماً علي أن أقول بأن من الضروري أن يترجم هذا الديوان إلى اللغات الإسلامية ، ومنها اللغة البوسنوية نفسها ، آملين أن تكون هذه التجربة هي البداية لإبدعات شعرية وقصصية وروائية تعالج المأساة في البوسنة.